

لغة الترجمة

فرحات معمرى
جامعة منتوري
- قسنطينة -

Résumé:

De part son caractère métissé, à l'instar de tout traducteur, la langue de la traduction a toujours été taxée d'impureté. Cette impureté - d'ordre lexical, structural, civilisationnel, ... - est une richesse qui n'existe, à mon sens, dans aucune des langues pures (existent-ils des langues pures ?) Cette impureté et ce métissage devraient être source de valorisation et de fierté pour la traduction. Car - historiquement parlant - c'est ce caractère *impure* qui a permis l'émergence de certaines langues et la survie de bien d'autres. Il a permis à celles-ci de continuer d'exister et de s'adapter aux différents changements. Ainsi, une vision puriste, protectionniste et un excès de paternalisme envers les langues ne peut que les asphyxier (et les exemples sont multiples).

Je compte comme même finir ce bref résumé par un proverbe chinois qui dit : *c'est dans les eaux impures que l'on trouve des poissons.*

هي لغة بينية، لغة هجينة ينقصها النقاء، لغة من درجة ثانية تحتاج دائما إلى مراجعة، إلى صقل، إلى أقلمة، إلى تكيف، هي لغة

غير طبيعية، مفتعلة أحيانا، مرتجلة وعفوية أحيانا أخرى، لغة نشتم منها رائحة الترجمة، تحتاج بذلك لمزيل الروائح، لغة غريبة تحتاج إلى تدجين، متوحشة تحتاج إلى ترويض، لغة ثائرة، لغة واسطة، مجرد جسر، والجسر أول ما يستهدف في حالة الحروب، خط وصل (trait d'union) وخط الوصل لا يرقى ليكون حرفا، همزة وصل، وهمزة الوصل لا تنطق، إذ يمر عليها مرور الكرام، شفافة، لغة خيانة، لغة خيانة، مجرد وسيلة نقل، أو هكذا أرادت أن تكون إحدى أبرز النظريات الترجمية¹، هي اللا حدث، لغة الإنكشاريين، لغة المماليك، لغة الحراقة، والحراقة متهمون بنقص الوطنية، بل بالخيانة، هي مجرد صورة للأصل، فهي بذلك غير أصلية، غير أصيلة. أو هكذا توصف.

تعريب أم/أو تغريب:

كل الدراسات الترجمية الموجودة حاليا تصب في اتجاهين اثنين لا ثالث لهما: إما أن يقوم المترجم بتدجين النص وتكييفه بجعله سهلا للهضم في الثقافة الهدف (وهو الاتجاه الأول)، وإما أن يترك النص الأصلي كما هو بغرابته وعيوبه وشوائبه وعلى القارئ، في هذه الحالة، أن يبذل قصارى جهده لفهم وتحصيل هذه الغرابة وتقبل هذه الشوائب كما هي دون اللجوء إلى تصفيتها.²

وقد وضح هذه النقطة المفكر والفيلسوف الألماني فريدريك شلايغمacher (Friedrich Schleiermacher)، 1768-1834، قائلا : «إما أن يترك المترجم الكاتب وشأنه ويعمل على أن القارئ هو الذي يذهب لملاقاته، وإما أن يترك القارئ وشأنه ويعمل على أن الكاتب هو الذي يذهب لملاقاته. ونظرا لشدة تباين السبيلين، فإنه يتحتم إتباع سبيل واحد بمنتهى الأمانة، لأن الجمع بينهما يؤدي لا محالة إلى نتيجة لا تحمد عقباها، حيث أنه في هذه الحالة لن يتم اللقاء بين الكاتب والقارئ أبدا.»³ [ترجمتنا].

وتجدر الإشارة هنا أن مفهوم الغيرية أو الغرابة يتعدى مجال الدراسات الترجمة ليشمل الأنثروبولوجيا وتاريخ الثقافات والأدب المقارن.

لغة المماليك :

أتراك، يونانيون، سلوفاكيون، قوقاز، بحريون كانوا أم برجيون. أعزوا الحضارة العربية الإسلامية حين لم تجد من يعزها من العرب. أوقفوا زحف المغول. طردوا الإفرنج من سوريا و جعلوا من مصر أكبر قوة اقتصادية وعسكرية شرق المتوسط طيلة القرنين الرابع والخامس عشر. بسطوا نفوذهم على فلسطين (ومن يبسط نفوذه اليوم على فلسطين ؟)، ثم على سوريا وقبرص وليبيا. شجعوا العلوم والفنون والآداب. وقد كانوا عبيدا، كانوا مواطنين من درجة ثانية، كانوا خليطا. و لكن بما أن الهجين يفعل ولا يقول، بما أنه قادر على التأثير، على ترك البصمات، على تغيير التفكير... فمرحبا به. أو هكذا قال الفيلسوف الإيطالي أومبارطو إيكو:

En ce sens, il n'y aurait pas une grande différence textuelle entre une traduction bourrée d'erreurs lexicales et très mal écrite, mais qui a beaucoup circulé et influencé des générations de lecteurs, et une autre que l'opinion publique aurait tendance à définir comme étant plus correcte, mais qui a circulé après, et n'a vendu que quelques centaines d'exemplaires. Si celle qui a changé la façon d'écrire ou de penser de la culture hôte, c'est la «mauvaise» traduction, alors ce sera celle qu'il faudra considérer le plus sérieusement.⁴

لغة الشعر الخاطي (الشعر الملحون):

لغة الترجمة هي لغة الشعر الملحون بخليطه، بخرقه لقواعد الشعر وبحوره، بكسره لقواعد اللغة. هو الشعر الخاطي لغة، الخارق لكل الأنظمة الشعرية، ومع ذلك فهو إبداع شعري له نظامه الخاص الذي يصعب تفسيره، يصعب تقنيته. هو شعر بلغة شعبية سوقية شفاهية تتعمد خرق القواعد اللغوية. لكنها ظاهرة صحية، أسمح لنفسي بأن

أسميها رسكلة لغوية تعتمد كسر الجهاز اللغوي المفروض والأوزان الشعرية المتعارف عليها من أجل الإبداع بلغة لم تكرر بعد، لغة ليس لها وطن. فاللغة المستعملة، سواء على مستوى المصطلحات أو على مستوى التراكيب، هي التي تفرض الوزن، أو «اللاوزن» وليس العكس. شعر «خاطي» لغوي، خاطي شعريا لكنه شعر استطاع، بتمرده هذا، خلق خصوصيات شعرية جديدة وسمح للغة العربية بإعادة رسكلة مكنتها من ترك بصمات جديدة مختلفة تماما عما ألفناه من اللغة العربية الكلاسيكية ومن الأوزان الشعرية المتعارف عليها. وكما يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره نتمنى أن يجوز للمترجم ما لا يجوز لغيره. أو هكذا وصفه شاعر الشعاعية، شاعر الإبداع هنري ميشونيك (Henri Meschonnic):

La poésie arabe populaire, au Maghreb, *Le Melhun*, est un exemple des tentatives métriques pour définir la poésie par le mètre, les mètres connus : «pour le définir presque tous les systèmes connus de versification ont été avancés», quantitatifs, accentuels, syllabiques. Aucun ne convient. L'arbitraire des interpolations est tel que le poème y apparaît fait pour la métrique, plutôt que la métrique pour le poème. La transcription même est déjà ordonnée en vue du mètre décerné.⁵

عندما تصبح الأغصان جذورا :

باريس: بلد الجن والملائكة، ليست هي باريس دون برجها، برج أيفل، البرج الألماني التصميم، الألماني التخمين، الألماني الإنتاج، من ذا الذي يجرؤ على التشكيك في فرنسية البرج الباريسي؟
نيويورك: مدينة الأحلام. مدينة الآمال. مدينة الكل شيء ممكن. ليست هي ولن تكون نيويورك دون تماثيلها. تماثيل الحرية. كندا

ننسى أنه أيقونة باريسية عبرت المحيط في حالة مفككة في إحدى سفن الشحن.

1998: ديكة فرنسية صالت وجالت في ملعب Stade de France. هي الأفضل، هي الأقوى، هي الأجل. أدخلت الفرحة في قلوب العالم، في قلوب الفرنسيين، لكن ليس كل الفرنسيين. لأن النصر لم يحققه فرنسيون سوش (français de souche). لأن النصر لم تحققه ديكة فرنسية نقية صافية، بل ديكة هجينة جاءت من كل حذب وصوب: من الجزائر، من السينغال، من مالي، من أوكرانيا، من بلاد الباسك، ومن سائر بلاد الله. لذلك فالفرحة هجينة، ينقصها الذوق، تنقصها الملح، أو هكذا قال رئيس حزب فرنسي منطرف.

لغة الغربة/ لغة الحراقة :

يوجد اليوم – في الضفة الجنوبية من المتوسط – من هو مستعد لأن يموت في قارب وسط البحر من أجل بلد يتوق لرؤيته والعيش فيه، لكنه بلد لم يره بعد. (حالة الحراقة) لماذا ؟ بدافع الغربة. والمفارقة أنه يوجد في نفس الوقت – في الضفة الشمالية من المتوسط – من يحن لبلد يعتبره جزءا من هويته رغم أنه لم يسبق له وأن رآه من قبل. (حالة المهاجرين من الجيل الثاني والثالث والرابع : les beurres). لماذا ؟ بدافع الغربة كذلك. هو الشعور الدائم أن المنظر أجمل في الضفة الأخرى. هي الرغبة في القفز اتجاه الآخر. هو الصراع الدائم بين الأنا والغير.

وكذلك هي لغة الترجمة: هي منتج الصراع القائم في نفسية المترجم كعنصر اجتماعي - يحمل متاعا ثقافيا معيناً - انفتح الأفق أمامه على واقع ثقافي آخر يعتقد، عن قناعة، أنه من الجمال بمكان، لكنه واقع مختلف. من المعروف لدى اللسانيين أن الشخص الثنائي اللغة (la personne bilingue) لا يستطيع أن يقيم الحدود بين اللغتين – الثقافتين – اللتين يحملها، وهو ما يسميه اللسانيون **بالتداخل اللغوي**. عبارة سلبية الإيحاء، سلبية المعنى، تشير إلى استحالة التحكم في لغتين – ثقافتين – مختلفتين بنفس الدرجة من الدقة. بمعنى أن ما يحمله المترجم من تداخلات – ومنها كلمة دخيل، أي غريب – هو

مجرد خليط يعكر صفو النقاء اللغوي و يترك بقعا (des tâches) يصعب التخلص منها. لكن النظرة الكاملة، النظرة الشاملة تستدعي بالضرورة الابتعاد عما نريد النظر إليه.

On n'atteint pas si facilement à la «l'impidité» quand on ne s'éloigne guère de chez soit. L'innocence des grandes distances, la proximité de l'abord simple, de l'exotisme font alors défaut.⁶

فالترجمة، تماما كالغربة، معاناة، تجربة انسلاخ من الذات. فهجانة اللغة وشوائبها المكتسبة ناتجة عن الاحتكاك بالآخر. فدور المترجم هو تجنب العمل الإلحاقى (annexionniste)، تجنب أحادية النظرة. مطلوب منه الانسلاخ من ذاته والذهاب اتجاه الآخر، أن يكون خليطا، تماما كلغته. أن يكون الشيء ونقيضه، أن يساوي، أن يعدل بين الثقافات، بين اللغات، بين الديانات، أن يتخلى عن التعصب، عن الشوفينية، عن الاستعلاء، عن الترجمة الثقافية، عن الشفافية الإيديولوجية، عن الكتابة السلبية، عن الاعتقاد أن لغته أنقى وأحسن من لغات الآخرين وأن دوره هو حماية لغته، لأنه لو فعل فالنتيجة ستكون عكسية لا محال. فالانعزالية الهادفة إلى نبذ الغرب والتوقع في الخصوصية المحلية تحت ستار الحفاظ على الهوية هو أشبه ما يكون بسياسة النعام. مطلوب من المترجم أن يترجم أشواقه على غرار محي الدين ابن عربي في ترجمان أشواقه:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة *** فمرعى لغزلان ودير لرهبا
وبيت لأوثان وكعبة طائف *** وألواح تورا ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أى توجّهت *** ركائبه فالدين ديني وإيماني

Mon cœur est à même d'accepter toutes formes d'images

Pour les gazelles, il est le pâturage

Et pour les moines, il est le couvent

Il est des tableaux pour la Thora
et un parchemin pour le Coran
Je suis disciple de l'amour
Peu importe ses lois
Telle est ma religion, telle est ma foi.⁷

بصدر رحب. بقلب منفتح يسع كل الثقافات. كل الكتب السماوية. كل ديانات العالم. بسلمان فارسي. ببلال حبشي. بصهيبي رومي. بصلاح الدين الكردي. بطارق ابن زياد البربري. بابن سيناء. بالرازي. بالخوارزمي. بابن خلدون التونسي-الجزائري-المغربي. بهذا الخليط. بهذا اللانقاء. بهذه الهجانة وصلت الثقافة العربية إلى ما وصلت إليه. ثم كذلك وصلت إلى ما وصلت إليه لما فرقت بين العربي والأعجمي ثم تعجرفت واستعلت.

كذلك هي لغة الترجمة. لغة ثائرة. لغة ترفض الخضوع لكل ما هو مهيم. هي عمل على إبراز الإمكانات الخفية للغة، خطوة في اتجاه الآخر، فرصة للتجديد. فاختزال دور المترجم لمجرد ناقل للمعلومة من نقطة لأخرى إهانة له، شتم للغة. مطلوب من المترجم أن يحرص على استقلالية لغته، على عدم نقائها، لأن لغته لا تنتمي لأحد (*no man's langue*)⁸، ولأنه لا يفصل الوطنية عن النازية سوى شعرة واحدة. مطلوب منه أن يخوض تجربة شخصية، أن يغامر، أن يبتعد عن الترجمة الدقيقة الجاهزة التي تفرض نفسها، أن يبذل، وقبل الإبداع أن يخطئ.

الخاتمة :

عشق الفرنسية:

من بين سائر النساء، عشقت فرنسية عيناها بلون أزرق لازوردي، وجنتاها بلون قرمزي، لباسها جبة وقطان شامي، عطرها مسك وياسمين وعنبر شرقي. فرنسية تغذت من كل فواكه وخضر المتوسط من بطيخ وبرقوق ونارنج وخرشوف وباذنجان و...⁹

كلها كلمات عربية التخمين، عربية النشأة (أو من يدري؟) سافرت إلى فرنسا، دون أن تطلب الإذن من أحد و بدون جواز السفر (تماما كالحراقة)، ثم تأصلت وتجدرت (تماما كبرج أيفل، كتمثال الحرية)، ثم أصبحت أصلية أصيلة ومرجعا يرجع إليه و مصدرا يشتق منه.

فأرجو من سيادتكم أن تعطوني فرصة لأن أعشق عربية تلبس و تتعطر من وراء البحار.
معذرة عن هذا الخلط، معذرة عن هذا الخليط، لكنني أؤمن أنها الصورة التي يجب أن تكون عليها لغة الترجمة.

هوامش:

- 1- نظرية المعنى أو النظرية التأويلية.
- 2- لقد سبق لي وأن عالجت هذه النقطة في مقال عنوانه : «ترجمة الغيرية القرآنية: حالة أسماء الأعلام في القرآن»، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 25، جوان 2006 (جامعة منتوري - قسنطينة) وقد ارتأيت أن المقام يستدعي الرجوع لهذا المقال.
- 3- Cité par Umberto Eco, *Dire presque la même chose, Expérience de traduction*, Grasset, 2003, P.227.
- 4- *Ibid*, P. 200.
- 5- Henri Meschonnic, *Critique du rythme, anthropologie historique du langage*, éditions Verdier, 1982, PP. 465-466.
- 6- Georges Steiner : *Après Babel*, P. 489.
- 7- Notre traduction.
- 8- لعبارة لجون ريني لادميرال حين قال:
« Entre ces deux moments, il y a nécessairement une interface qui les articule l'un à l'autre, et que je me plais à appeler un **no man's langue**. C'est là très

précisément en quoi réside ladite déverbalisation tout simplement ». Méta, L, 2, 2005.

9- كل الكلمات التي تحتها سطر دخلت اللغة الفرنسية وأثرت قاموسها منذ مئات السنين بفضل لغة الترجمة.

Références bibliographiques:

- 1- Alexis NOUSS, *Plaidoyer pour un monde métis*, Les éditions Textuel, 2005.
- 2- Ferhat MAMERI, *Traduire l'altérité, le cas des noms propres dans la traduction du Coran*. Revue des sciences humaines, Université Mentouri-Constantine, no 25, juin 2006.
- 3- Ferhat MAMERI, *Traduire l'altérité juridique, le cas de la traduction juridique arabe – français en Algérie*, Revue Al-Mutargim no 13, Juin 2006.
- 4- Georges Steiner, *Après Babel, Une poétique du dire et de la traduction*, Albin Michel, 1998.
- 5- Henri Meschonnic, *Pour le poétique V, Poésie sans réponse*, Gallimard, 1978.
- 6- Henri Meschonnic, *Critique du rythme, anthropologie historique du langage*, Verdier, 1982.
- 7- Henri Meschonnic, *Poétique du traduire*, Verdier, 1999.
- 8- Umberto Eco, *Dire presque la même chose, Expériences de traduction*, Grasset, 2006